

Grammatical Renewal In The Thought Of Abdul Qaher Al- Jurjani And Its Impact On Modern Linguistic Studies

التجديد النحوي عند عبد القاهر الجرجاني وأثره في الدرس اللساني الحديث

Rasheed Abdullah Al Rubaysh

Arabic Language and Literature Department, Faculty of Languages and Humanities,
Qassim University, Saudi Arabia.
r1rr22@hotmail.com

Abstract

This research aims to highlight the efforts of Imam Abdul Qaher Al-Jurjani in renewing Arabic grammar and clarifying his position on grammar and grammarians, as well as the position of modern linguists on him and his new ideas. The importance of this research stems from the position of the theory of organization in grammatical and linguistic studies and the value of Abdul Qaher Al-Jurjani's efforts in grammatical renewal through his pioneering theory, which was the result of his unique genius and critical personality. It is also important to reveal the roots of his pioneering theory, its relationship with grammar and grammarians, and its impact on those who came after him. The conclusion of this research is to present the most important results that despite the abundance of studies on Abdul Qaher Al-Jurjani from various perspectives and trends, there is still a scarcity of research on the manifestations of grammatical renewal in his thought. Among the most prominent studies on this topic are Renewalist Trends in Grammatical Studies in the Thought of Abdul Qaher Al-Jurjani and Ibn Khaldun by Dr Abdullah Al-Khathran and Renewal in the Thought of Abdul Qaher Al-Jurjani through the theory of organization.

Keywords: Arabic Grammar; Linguists; Critical Personality; Renewal

مقدمة

فلقد كان ينظر معظم علماء النحو إلى النحو على أنه ذلك العلم الذي يُعرف به أحوال أواخر الكَلِمِ إعراباً وبناءً، فغاية النحو عند هؤلاء بيان الإعراب، وتفصيل أحكامه، حتى سُيِّى النحو عند بعضهم بعلم الإعراب. لهذا وُجد من علماء النحو القُدَامَى مَنْ يدعو إلى تغيير هذه الأفكار الموروثة، والثورة عليهما؛ كابن مضاء القرطبي ومَنْ جاء بعده من المُحَدِّثِينَ؛ كالأستاذ إبراهيم مصطفى، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور تمام حسان، وغيرهم كثير. لكن لعبد القاهر الجرجاني نظرةً تجديديةً مختلفة عن هؤلاء وأولئك. ولقد رأيت تقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة. ذكرتُ في التمهيد مفهومَ النحو عند النحويين وعبد القاهر الجرجاني. وفي المبحث الأول تحدثتُ عن مفهوم التجديد النحوي عند القدماء والمُحَدِّثِينَ. أما المبحث الثاني فتناولت فيه مظاهر التجديد

النحوي عند عبد القاهر. وذيلتُ البحثُ بخاتمة، أعقبها فهرس لمصادر الدراسة. واللهُ أسألُ أن تكون هذه الدراسة إضافة نافعة لحقل الدراسات النحوية، وأن ينفع بها قارئها.

منهج البحث

في دراسة هذا الموضوع الجليل سار الباحث في تقسيم البحث إلى طريقتين: أولاً، المقدمة: وهي ليناقدش هذا القسم مفهوم النحو عند النحاة وعبد القاهر. ثانياً: فيه فصلين وهما: الفصل الأول: يناقدش مفهوم التجديد النحوي عند القدماء والمحدثين. والفصل الثاني: يناقدش مظاهر التجديد في فكر عبد القاهر الجرجاني. وختم البحث بخاتمة التي ضمنت فيها أبرز النتائج. واتخذ الباحث في انجاز هذا البحث العلمي بالمنهج الوصفي والمنهج التحليلي.

نتائج البحث ومناقشتها

مفهوم النحو عند النحويين وعبد القاهر الجرجاني

ظل النحو العربي حبيس أفكار ورؤى موروثية، يتوارثها النحاة جيلاً بعد جيل، من ذلك تعريفهم النحو بأنه «علم به يُعرف أحوال أواخر الكلم إفراداً وتركيباً» (الأبدي، ٢٠٠١، ص. ٤٣٤)، ويكاد ينحصر تعريفهم للنحو في هذا المعنى وإن تفاوتت عباراتهم (ينظر: أبو حيان، ١٩٩٧، ١/١٤). والغاية منه عندهم بيان الإعراب، وتفصيل أحكامه، حتى سمّاه البعض بعلم الإعراب (ينظر السيوطي، ١٩٩٢، ٣/٤٤٩). وفي هذا التحديد تضيق مفهومه الواسع، وحصر للنحو في دائرة ضيقة، يرى فيه الأستاذ إبراهيم مصطفى (١٩٩٢، ص. ٧، ٨) الخطأ من وجهين:

١. أنهم حين حددوا النحو وضيقوا بحثه حرموا أنفسهم وحرّمونا - إذ تبعناهم - من الاطلاع على كثير من أسرار العربية وأساليبها المتنوعة، ومقدرتها في التعبير.

٢. أنهم رسموا للنحو طريقاً لفظية، فاهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع أو نصب من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثرٍ في المعنى. يجيزون في الكلام وجهين أو أكثر من أوجه الإعراب، ولا يشيرون إلى ما يتبع كل وجه من أثر في رسم المعنى وتصويره، وهذا يشتد جدلهم ويطول احتجاجهم، ثم لا ينتهون إلى كلمة فاصلة".

لهذا فطن عبد القاهر الجرجاني إلى أهمية المعنى في العربية، فالمعنى هو الأساس الذي تُبنى عليه الأحكامُ النحوية عند الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، وبناء الجمل، ونحو ذلك، والأسبقية في اللغة للتعبير والإدراك الكلي للمعاني المقصودة، ولقد حفظ التاريخ الأدبي أسماءً لشعراء فصحاء قالوا الشعر فصيحاً قوياً من غير أن يدرسوا القواعد. لاستظهارهم معاني التراكيب في نفوسهم. في

حين نجد اليوم مَنْ يعرفون القواعد حقَّ المعرفة، ولكنهم لا يستطيعون بيانًا ولا يُعبرون تعبيرًا قويًا، والعرب الأولون كانوا يتحدثون بسليقتهم حديثًا عربيًا فصيحًا قبل أن تظهر القواعد، وقد أشار ابن خلدون (٢٠٠٤، ص. ٥١٠، ٥١١) في مقدمته إلى ذلك، ونص على أن الإعراب يُمكن أن يستعاض به بما سمَّاه (بساط الحال)، ويقصد بذلك القرائن الدالة على المقاصد (ينظر لاشين، د. ت، ص ٦٨). كل هذه الأمور تَفْتَنُّ لها ذهنُ العلامة الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفَّى سنة ٤٧١ هـ (١٩٧٢، ص. ب، ج)، فلقد وعى الإمام عبد القاهر ثقافة عصره، وتمثَّل تراث أسلافه كسيبويه ومَنْ جاء بعده، ونقل عنهم في مصنفاته، ويُعد كتابه (دلائل الإعجاز) أشهرَ كتبه وأنصحَها؛ حيث يُثبت تفردَه وسبقه لعصره، خاصة فيما قدَّمه في كتابه هذا من نظرية النظم التي فتق بها معاني النحو، وكشف بها عن مقاصده، كما سنرى في طيات هذا البحث، فقد «خرج بالنحو من دائرة التعليقات العقيمة عند بعض النحويين إلى محيط المعاني التي تكمن في طيات التراكيب، أو نقول: إنه تخطَّى بالنحو من مرحلة وقوف بعض النحويين عند القاعدة إلى الانطلاق في آفاق المعاني التي هي ثمار وضع القواعد النحوية» (مخيمر، ١٩٨٣، ص. ٦).

مفهوم التجديد النحوي عند القدماء والمُحدِّثين، وأبرز المحاولات فيه

١. مفهوم التجديد النحوي عند القدماء والمُحدِّثين

لما تفتشى اللحن في العربية فكَّر الغيورون من علماء اللغة في وضع علم النحو العربي؛ انطلاقًا من خدمة كتاب الله الذي تعهَّد الله - عز وجل - بحفظه، غير أن هذا النحو ظل تقليديًا حتى بدأت بعض الأصوات الاجتهادية تُنادي بتطويره، وقد اختلفت مفاهيم التجديد عند أولئك المجددين، وتنوعت بناء عليه مناهجهم فيه، ففي حين فهم بعضهم التجديد على أنه إضافة واعية وحذرة في حقل الدرس النحوي، تنظر في وظيفة النحو الكلية من مفهومه الشامل، مع الاحتفاء بالموروث، والاعتماد على أصوله الراسخة التي بُني عليها بوصفه حلقة متصلة بالتراث غير منفصلة عنه. فهم البعض الآخرُ التجديد النحوي على أنه تسهيل وتلخيص واختصار فقط في حجم المادة النحوية، وأسلوبها، وطريقة عرضها، دون المساس بجوهره، وقوانينه الثابتة.

في حين صنع آخرون من التجديد ثورة عارمة على النحو العربي وانقلابًا كاملاً على أركانه وأساسه التي قام عليها، وهجومًا كاسحًا على أولئك (الطفاة من النحاة) الذين شَوَّهوا صورته وحمَّلوه من الأغلال ما لا يطيق، على حد زعمهم (ينظر: الأنصاري، ١٩٧٣، ص. ٢٥). ويظهر المفهوم الأول للتجديد بمعناه الواعي المتصل بالتراث عند طائفة من محققي النحاة الضالعين، فظهر هذا الاتجاه الجديد مع أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني؛ حيث نجدهما في كتبهما يبحثان عن الأصول العامة للنحو، وعلاقة معاني الكلام بالأصوات وبنية الكلمة وتركيبها، وتابعهما في ذلك الجرجاني في محاولته

الرائدة المتمثلة في نظرية النظم؛ حيث رسم في كتابه دلائل الإعجاز - كما سنرى لاحقاً - طريقاً جديداً للبحث النحوي، تجاوز فيه أواخر الكلمات، وعلامات الإعراب، ويبيّن أن للكلام نظماً، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام (ينظر: مصطفى، ١٩٩٢، ص. ١٦؛ الخثران، ١٩٨٧، ص. ١٣؛ شاهين، ١٩٨٩، ص. ٧٠؛ برانق، د.ت، ص. ٥٩).

وأكد عبد القاهر على المهمة الوظيفية للغة، ومنذ ذلك الحين بدأ تأسيس مرحلة الدراسة الوظيفية من خلال علاقة علم البلاغة بعلم النحو (ينظر: محمد، ١٩٩٩، ص. ٦٦). وفي المنحنى الآخر للتجديد بمفهومه الانقلابي، ثار ابن مضاء القرطبي (١٩٤٧، ص. ٢٠) على طريقة تناول النحاة لعلم النحو في كتبهم لَمَّا وجد أبحاثهم النحوية متضخمة بتقديرات وتأويلات وتعليقات وآراء لا حصر لها، فمضى يهاجم ذلك في مؤلفاته، وأشهرها كتابه الموسوم بـ (الرد على النحاة). ويُعد كتاب الرد على النحاة من أشهر الكتب التي نقدت العلل النحوية، وبنى فيه ابن مضاء (١٩٤٧، ص. ١٢٧) نقده على أساس من المذهب الظاهري الذي يقوم على التقيّد بظاهر النص دون الخوض في التفسير والعلل، وقد استوحاه من ابن حزم الظاهري في مذهبه الفقهي، وقصد بمؤلفه إعادة بناء هيكل النحو العربي، واتجه بداية إلى إلغاء العلل الثواني والثالث، أي: العلل القياسية والجدلية؛ لأنها في نظره لا تضبط نطقاً ولا تقوّم استعمالاً، مكتفياً بالعلل الأولى، وهي ما أطلق عليها الزجاجي العلة التعليمية، أي: ما يفيد في انتحاء سمت كلام العربية (ينظر: الزجاجي، ١٩٨٦، ص. ٦٤).

ويؤخذ على ابن مضاء عدم تفرقة بين النحو التعليمي والنحو العلمي المُقدّم للمتخصصين في دراسة علم النحو، ويُعد مذهب ابن مضاء النحوي هذا انعكاساً لمذهبه الفقهي. وتُعد ثورة ابن مضاء الجريئة في كتابه (الرد على النحاة) أشهر وأجراً محاولة تجديدية لدى القدماء، نقد فيها النحاة، وعاب بعض قواعدهم وأصولهم النحوية، وهي وإن لم تلقَ آذاناً صاغية في عصره إلا أنها كانت وقوداً جزلاً لثورة المُحدثين على التراث النحوي من بعده، حتى قال شوقي ضيف في مقدمة تحقيق كتابه (الرد على النحاة) (ابن مضاء، ١٩٤٧، ص. ٩): "والحق أن ابن مضاء يفتح أمامنا الأبواب لكي ندرك ما كنا ننشده من تيسير النحو، وتذليل صعوباته". وبالفعل فإن ابن مضاء قد فتح باب التجديد الحادّ على مصراعيه أمام المولعين بالتجديد من المُحدثين الثائرين في وجه كل تراثي قديم؛ إذ لم يكتفوا بضرورة التيسير في تعلّم النحو وتعليمه، والبعد عن التكلف والتعقيد في التعليل، بل بالغوا في المطالبة بإعادة هيكله أبوابه ومباحثه وإعادة النظر في بعض أصوله وصياغته على وجه يتلاءم مع نظرتهم الحادة للدرس النحوي القديم من جهة، وضرورة الأخذ بوظيفة النحو الكلية وفق نظرياتهم الحديثة من جهة أخرى.

وقد غالى كثير من المُحدثين في هذا الاتجاه الثوري على النحو والنحاة، حتى صحّ وصف كثير منهم بغلاة التجديد، حين تجاوزوا حدود التيسير إلى تسلق حصون النحو بمعاولهم التي لم تسلم منها

بعض أصوله، ناهيك عن فروعه. ويظهر مفهوم التجديد عندهم من خلال عناوين بعض كتبهم التي تُوجي بالجدّة والحدّة، مثل: (إحياء النحو) لإبراهيم مصطفى، و(تجديد النحو) لشوقي ضيف، و(في النحو العربي نقد وتوجيه) لمهدي المخزومي، و(النحو المعقول) لحسين كامل. ويتأكد ذلك المفهوم أيضًا عند هؤلاء في موقفهم الحاد من النحويين، ونقدتهم القاسي لقواعدهم وأصولهم، كقول (مصطفى، ١٩٩٢، ص ١٦): "أطمع أن أغير منهج النحو العربي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو، وأبدلهم منه فصولاً سهلة...". وقول محمد برانق (د. ت، ص. ٧١ فما بعدها): "ونحن لا نرمي من وراء هذا التيسير إلى التهوين من علم النحو، وإن كان هينًا، ولعلي لا أغضبكم إذا قلت لكم: إنني لأتمنى على الله أن يأتي اليوم الذي يُنادى فيه بإلغاء علم النحو وإحراق كتبه". أما الدكتور محمد كامل حسين (١٩٧١، ص. ٢٥) فيقول: "ليت الناس قالوا للنحاة: إن نحوكم هذا عقبات وعثرات وقيود... والقواعد الجديدة ليست تيسيرًا للنحو القديم ولا إيضاحًا له، وإنما هي بديل عنه". أمّا مفهوم التجديد عند (دعاة التيسير) المعتدلين، فقد حمل لواءه ثلّة من الأولين وثلّة من الآخرين، فهو عند الأغلبية الساحقة من المتقدمين لا يكاد يخرج عن الرغبة في اختصار المطول، وتذليل الصعب، وتقريب البعيد، وذلك بإعادة ترتيب مادة النحو، وصياغة عبارته بأسلوب سهل مُيسر، من غير المساس بأصوله وقواعده وأحكامه، فهو تجديد في وسائل العرض والمنهج دون المساس بالقواعد والأصول. ويظهر ذلك المفهوم من خلال عناوين بعض كتبهم؛ كالتسهيل، والإيضاح، والمقرب، والتوطئة ونحو ذلك (ينظر ضيف، ١٩٩٣، ص. ١٣؛ أبو الهيجاء، ٢٠٠٢، ص. ٢١٩؛ عيساني، ٢٠٠٨، ص. ١٠٦).

ويُعد مفهوم التجديد هذا عند دعاة التيسير من المعاصرين محاولة تربوية تهدف إلى إعادة عرض المادة النحوية بحلة قشبية وأسلوب سهل وشكل مختصر، مع العناية بالشواهد والأمثلة العصرية، وخير من يُمثل هذا الاتجاه الأستاذ عباس حسن في كتابه النحو الوافي، الذي فتح به باب التيسير في تأليف النحو لكثير من أصحاب المصنفات النحوية الذين حذو حذوه، واهتدوا بهداه.

٢. أبرز المحاولات التجديدية للدرس النحوي

لقد ظهر عدد من المحاولات والمشاريع التجديدية الرامية إلى إعادة صياغة النحو بأسلوب قشيب ومنهج جديد، يهدف إلى تسهيل عبارته، وتقريب منهجه، من خلال جهود متنوعة؛ تلخيصًا، ونظمًا، واختصارًا، وتقريبًا. وقد ذكر بعض الدارسين أن أفضل المؤلفات في تناول التجديد النحوي خمسة؛ ثلاثة منها من إعداد قدامى النحاة، واثنان لنحويين في العصر الحديث (ينظر: خليفة، ١٩٨٦، ص. ٧٥؛ الفيصل، ١ ديسمبر ١٩٨٧، ص. ٣٤٤).

أما المؤلفات القديمة فهي الجمل في النحو للزجاجي، والواضح لأبي بكر الإشبيلي، واللمع لابن جني، وفيها عرض سهل للنحو لا تعقيد فيه ولا لجوء إلى تعليقات فلسفية؛ انطلاقًا من الرغبة في

تقويم السنة المتعلمين وأقلامهم مع الحفاظ على جوهر اللغة وعدم المساس بها. وأما المؤلفان الحديثان في تيسير النحو فهما كتاب: إحياء النحو، لإبراهيم مصطفى، فتكلم فيه عن إعراب الاسم، وحدّه، واستبدل مصطلحات نحوية بغيرها دون الخروج على المنهج العام مما اختطه النحاة القدامى. والمؤلف الثاني للدكتور شوقي ضيف، وهو (تجديد النحو)، وفيه صنّف النحو تصنيفاً جديداً حذف منه بعض أبوابه ومباحثه، وجمع بعض موضوعاته في باب واحد، وراعى انتقادات ابن مضاء القرطبي وآراء مجمع اللغة العربية في القاهرة، منطلقاً من هدف واحد هو صحة النطق؛ لأن الإعراب ليس غاية في ذاته، بل وسيلة لصحة النطق. والحقيقة أن محاولات التجديد في الدرس النحوي كثيرة ومتعددة، سواء ما كان منها في القديم أو الحديث، مع اختلاف مناهجها وأغراضها. وكان للمجمع اللغوي - ولا سيما مجمع اللغة العربية بالقاهرة - جهود حثيثة في التجديد. ولم يكتب لتلك المحاولات التجديدية الشاملة في العصر الحديث ما كُتب لمحاولة عباس حسن، من خلال عرض أسلوب جديد لتناول النحو في كتابه (النحو الوافي)، وهي محاولة راشدة متكاملة إلى حد بعيد، تنطلق من التراث وتحتفي به، مع حمل هم التيسير والأخذ بأسبابه (ينظر الشنطي، وآخرين، ١٩٩٨، ص. ٦٢؛ خاطر، ٢٠٠٩، ص. ٩).

مظاهر التجديد النحوي عند عبد القاهر

١. موقف عبد القاهر من النحو والنحويين

يُشكل الشيخ عبد القاهر الجرجاني حلقة فاصلة في النحو العربي، فقبله كان ينظر للنحو نظرة تقليدية صرفة، غايتها توخي أواخر الكلم إعراباً وبناءً، فنقله بنظريته الرائدة (نظرية النظم) نقلة واسعة المدى، تجاوز بها حدود الإعراب والبناء إلى أفق أرحب، وخرج بها من ضيق الصناعة إلى سعة المعنى، مؤلياً وجهه شطر آفاق بعيدة المدى لم تتجه نحوها أبصار قدامى النحويين على علو كعبهم وسعة مداركهم، وكأنه أدرك بثاقب فكره حاجة النحو إلى إدراك معانيه المتعددة، وكشف أسرارها الكامنة، "ولذا نراه قد نقل النحو إلى جو يزخر بالحيوية، وجعل موضوعاته مبدئياً يجول فيها بذهنه الصافي" (لاشين، د. ت، ص. ٨٢).

فأسس بهذا لنظرية نحوية جديدة وفريدة في آن، أسهمت إسهاماً فاعلاً في إثراء الدراسات النحوية؛ قديمها وحديثها. ومع ذلك لم يُقلل الشيخ عبد القاهر من شأن النحو ولا من جهود النحاة السابقين والمعاصرين له، فلقد حاول البحث عن عذر لهم بقصر النحو على أواخر الكلمات، ومع أن الشيخ عبد القاهر حاول رسم معالم جديدة للبحث النحوي يتجاوز فيه أواخر الكلمات وعلامات الإعراب إلى روح المعنى، إلا أنه لم يُقيم نظريته تلك على أنقاض النحو، ولم يهدم بمعول التجديد أصوله وقواعده، ولم يكن - لحظة - متبرئاً من النحو والنحاة، غاضباً من شأنهم، مُسقِطاً آراءهم، كما

فعل بعض دعاة التجديد من القدماء والمحدثين، بل نجده يهاجم أولئك الذين يزهدون في النحو ويحتقرونه ويصغرون أمره ويتهانون به؛ بأن ذلك أشبه بأن يكون صديقاً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه (ينظر الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٢٣).

وقد دافع عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٦٤) عن النحو وأهله ضد أولئك الذين عابوا النحو في زمانه فقال لهم: "إنكم أمام أحد أمرين؛ إما أن تقتحموا التي لا يرضاها العاقل، فتتذكروا أن يكون بكم حاجة في كتاب الله وفي خبر رسول الله... وإما أن تعلموا أنكم قد أخطأتم حين أصغرتم هذا العلم وظننتم ما ظننتم فيه، فترجعوا إلى الحق وتسلموا الفضل لأهله" (ينظر لاشين، د. ت، ص. ٤). وقد بين أن إعجاز القرآن يكون بالنظم، وما النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله لا تزيع عنها، ولا تخل بشيء منها (ينظر: الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٤٦، ٤٧). ولقد استفاد الجرجاني (١٩٩٢، ص. ٨١) في نظريته من جهود سابقيه من النحويين، وبنى عليها، وأشاد بهم، فقد ذكر في الدلائل أن الخليل وسيبويه بلغا في فقه النحو ما لم يسبقهما إليه أحد، أما الجاحظ فبلغ في علم الشعر ومعرفة جوهره وطابعه وبعده مبلغ الشيخين في علم النحو (ينظر أبو موسى، ٢٠١٠، ص. ٢٤). وقد تأثر عبد القاهر بالمدرسة البصرية كثيراً، وكان يُسميهم أصحابنا (ينظر الجرجاني، ١٩٨٢، ١/١٦١، ١٧٤، ٢١٦، ٢٦١)، وأعجب بسيبويه والخليل، وتلمذ على كتب أئمة البصريين والكوفيين وتلامذتهما، وتعلق بأبي علي الفارسي، وكتبه، وشرحها، وكان بمثابة الملمه له (ينظر مخيمر، ١٩٨٣، ص. ٦٨، ٧٩، ٨٥).

كل هذا يؤكد على البيئة التي نشأ فيها عبد القاهر، ووُلد في كنف نظريته الفذة، وهي بيئة النحو نحاة. فقد أخذ جذور نظريته من النحاة أنفسهم؛ لأن النحاة أصحاب ذوق رفيع في فهم المعاني وخصائص التراكيب (ينظر مخيمر، ١٩٨٣، ص. ٦). وإن المتأمل لكتاب دلائل الإعجاز يلحظ بوضوح أثر أئمة النحاة فيه وفي نظريته؛ حيث جعل أقوال سيبويه والأخفش والمبرد والزجاج والفارسي وابن جني أصولاً يهتدي بها، ولا سيما سيبويه، الأمر الذي يدفع إلى احتمال أن يكون عبد القاهر استلهم نظريته منه في الكتاب (ينظر مخيمر، ١٩٨٣، ص. ٥٣، ١٣٣).

٢. نظرية النظم التجديدية عند عبد القاهر

لقد رسم الإمام عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٤٦، ٤٧) بنظرية النظم معالم جديدة في البحث النحوي، وأسّس منهجاً فريداً له قواعده وقوانينه الواضحة، وربطها ربطاً وثيقاً بالنحو وقوانينه، فيقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها؛ وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر

في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد... وينظر في التعريف والتنكير... فيضع كلاً من ذلك في مكانه، ويستعمله على الصحة وما ينبغي له..."

ويتضح من ذلك أن الإمام عبد القاهر قد بنى نظريته هذه على أسس من علم النحو، واستلهمها من أصوله وقوانينه، وليست منبئة الصلة بالنحو وقواعده، أو بديلاً عنها، أو تمرّدًا عليها، كما يتوهم بعض غلاة التجديد، غير أنه بنظريته الرائدة تلك "أعطى للتراكيب النحوية معطيات حية، ووُلد منها حياة جديدة، وأضاف إليها ألوانًا من الدلالات، وأصبغًا من المعاني أعادت إلى النحو الحياة..." (لأشين، د. ت، ص. ١٤٧).

وقد أكّد عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٦٥) في نظريته التجديدية هذه بأن النظم توخي معاني النحو، وأن ليس مقصود الإعراب أن يُعرف أن هذا فاعل وذاك مفعول وهذا حال؛ لأنها من البديهيات التي غصت بها الكتب، ولكن أن يعرف الناظم متى يقول: "زيد منطلق" ومتى يقول: "زيد ينطلق"، فالفرق بين الجملتين كبير ومؤدهما مختلف تمامًا... ولا يمل عبد القاهر من ترديد فكرته أن النظم والترتيب هي توخي معاني النحو.

فعبد القاهر قد وهب نفسه للدفاع عن نظريته، وأن مراده منها الكشف عن المعاني المخبوءة في التراكيب والوظائف النحوية، وعلاقتها، كل ذلك خدمة للنحو بتجديد روحه، وبيان خصائصه، وإبراز وجه الحاجة إليه في نظم الكلام وتنسيق التراكيب، وبذلك نراه قد نقل النحو إلى جو يزخر بالحيوية والحركة والجمال، فنقل بذلك هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلمات فقط، والبحث عن العلة وعلّة العلة إلى علم رحب فسيح ينبض حياة وحركة.

- وقد ذهب عبد القاهر إلى أن نسبية الصواب والخطأ في النظم والصحة والفساد فيه ترجع في المقام الأول إلى معاني النحو وأحكامه، وتدخّل في أصل من أصوله، وتتصل بباب من أبوابه، فلا مزية للنظم ولا فضل دونه، لا شيء غير ذلك (لأشين، د. ت، ص. ٨٢).

ويؤكد عبد القاهر أيضًا على أن الفساد في الكلام والخلل فيه إنما يكون بسبب مخالفة النحو والخروج على قواعده، وأن الصلاح فيه والدقة في النظم إنما تكون باتباع قواعد النحو والتزام قوانين الإعراب (ينظر: الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٦٥-٦٧؛ ولأشين، د. ت، ص. ٢١٦).

كل ذلك يُؤكد لنا أن عبد القاهر كان شديد الاحتفاء بالنحو وأصوله، وأن نظرية النظم لم تقم على أنقاضه كما يروج له البعض، وإنما هي نافذة جديدة تطل على فنائه الرحب؛ تتنفس هواءه، وتستنشق أريجها، شديدة الصلة بهذا البناء الشامخ الذي شاده الأسلاف بكل مهارة وإتقان، وكان عبد القاهر نفسه أحد من أرسى قواعد علم النحو، وساهم في بنائه وتطويره، وفق أصوله الثابتة التي يحاول بعض غلاة التجديد تقويضها، ويدعون زورًا أن ملهمهم في ذلك هو عبد القاهر الجرجاني في نظريته الرائدة (نظرية النظم). لقد انتهج عبد القاهر منهجًا فريدًا هو تقديم تفسير لغوي

موضوعي لوجوه النظم الذي يتحقق به الإعجاز، وقد أَلح الجرجاني في نظريته هذه على المواءمة بين الاستقامة النحوية والصحة الدلالية، وذلك من خلال كشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته من جهة، وإتاحة أكبر قدر ممكن لتفسير المبادئ الدلالية؛ معتمداً على القواعد النحوية الضابطة للنظام اللغوي.

ولم يتوقف عبد القاهر عند مستوى التنظير الذي سبقه به أصحابه من قبّله، مثل عبد الجبار المعتزلي في بيان إعجاز القرآن، بل تعداه إلى مستوى التطبيق، فهو وإن سبق بالكلام عن قضية النظم من قبّل عبد الجبار والباقلاني والجاحظ وغيرهم من علماء البلاغة (ينظر: نايتة، ١٩٨٧، ص. ٣٥)، إلا أنه قد وظّفها توظيفاً دلاليّاً، وبثّ فيها روح الحركة، وأماط اللثام عن وظائفها وعلاقتها السياقية، متخذاً من التمثيل والتنظير والتطبيق وسيلة لإيضاح نظريته وإرساء دعائمها القائمة على أن المزية في الكلام لنظمه، ودلالته على معناه لا للفظه، ورد عبد القاهر في مؤلفه دلائل الإعجاز على المعتزلة في ردهم الفصاحة للفظ دون المعنى، وأن المعاني عارية مطروحة في الطريق، فمن ألبسها لفظاً رائقاً كان أولى وأحقّ بها.

والذي يُميز عبد القاهر عن سابقيه أنهم يردّون إعجاز القرآن لفصاحته، ولكن لأي شيء يُوصف بالبلاغة والفصاحة؟ فهو يجعلها في تظافر المعاني والألفاظ معاً في التركيب، لكن المعاني عنده مقدمة، أما الآخرون ممن سبقوه، فيجعلونها في الألفاظ فقط، وهذا يتضح من خلافهم في موضع الفصاحة بين اللفظ والمعنى (ينظر: العلوي، ٢٠٠٢، ١/٧١؛ الناصري، ١٩٨٠، ص. ٣٦).

فعبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٣٦) يرى أن فصاحة اللفظ ليست كافية لمعرفة وجه الإعجاز، بل لا بد للفصاحة من استكمال ركنيها: المعنى واللفظ، وهو بذلك يربط بين الصحة الداخلية والصحة الخارجية، فقد تحدث عن معنى البلاغة وأن الكلمة لا تُوصف بالحسن... وذلك من وظيفة البلاغة، أو ما تنعت به الكلام الذي شأنه كذلك من لفظ البلاغة، فلا يروق لنا لفظ ولا نستحسنه ولا يظهر لنا في حلة جميلة إلا إذا كان مُؤدّيّاً لمعناه على أتم وجه، مختاراً له من الألفاظ ما يظهر فيها كي يكشف عنه ويفصح.

وليس معنى ذلك أن عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٤٠) يغض من شأن اللفظ، بل هو الداعي حسن اختيار الألفاظ للمعنى، «فيختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له»، لكن لا مزية لهذا اللفظ في نفسه ما لم يأتلف في التركيب، ويؤدي في نظمه إلى معنى حسن، يوصف بموجبه الكلام بالفصاحة والبلاغة، كل ذلك وفق قواعد علم النحو وأصوله.

لقد عُني عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٣٦) بالبحث عن الأصول العامة للنحو، وعلاقة معاني الكلام بالأصوات، وأكد على المهمة الوظيفية للغة، وهو بذلك يؤسس مرحلة الدراسة الوظيفية من خلال علاقة علم البلاغة بعلم النحو، ويربط كذلك عامل النظم بالعامل النفسي في عملية إنتاج الكلام.

فلم تعد قواعد النحو عند عبد القاهر جامدة جافة مقصورة على الإعراب والبناء فحسب، بل أصبحت في نظريته الرائدة مقياساً يُهتدى به في البراعة، ووسيلة من وسائل التصوير والصيغة التي يتفاوت البلغاء في التسابق عليها، وقد أحسن عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٦٤) في تشبيه معاني النحو بقوله: "وإنما سبيل هذه المعاني النحوية سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدي في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نُسج إليه ضرب من التخير والتدبر في أنفاس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم" (ينظر عباس، ١٩٩٩، ص. ٩٦).

إن قضية اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في علم اللغة، وشغل بها النقد القديم والحديث، وانقسم النقاد فيها فرقاً وأقساماً: أصحاب اللفظ، وأصحاب المعنى، والذين جمعوا بينهما، وعبد القاهر ممن نصَّ على وجوب اتحاد اللفظ بالمعنى، وتظافرها معاً، وتكافؤ الشكل مع المضمون. يقول عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٢٥٨): "لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها، فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين، قيل لك: إن قولنا: (المعنى) في مثل هذا يُراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يُثبت أو ينفيه، نحو: أن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول: "زيد كالأسد"، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: "كأن زيداً الأسد"، فتفيد تشبيهه أيضاً بالأسد إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول، وهي أن تجعله من فرط شجاعته... لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه، فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق إلا بما توخي في نظم اللفظ وترتيبه؛ حيث قدّم الكاف إلى صدر الكلام وركبت مع (أن)، وإذا لم يكن إلى الشك سبيل أن ذلك كان بالنظم فاجعله العبرة في الكلام كله، ورضّ نفسك على تفهم ذلك وتتبعه، واجعل فيها أنك تزاوّل منه أمراً عظيماً لا يقادر قدره، وتدخل في بحر عميق لا يُدرّك قعره" (ينظر ابن شهاب، ٢٠١١، ص. ٢٣٢).

ويرى الدكتور عبد الله محمد بن شهاب أن عبد القاهر يُميز بين القواعد النحوية ومعاني النحو، فالأولى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقواعد التركيب وبأنماط البناء النحوي المجرد (القوانين والأصول)، والثانية ترتبط بالمعنى وبنظامه وبتشكّله على وفق سنن العربية وقواعدها (علم النحو)، فهي (أي: المعاني) إذا كانت نحواً فهي نحو المعاني لا نحو التراكيب. ويرى أيضاً أن نحو التراكيب ومعاني النحو أو نحو المعاني يتظافران كلاهما ليشكلا نظاماً مؤتلفاً ترتبط عناصره التركيبية ارتباطاً وثيقاً، فلا يمكن فصل أحدهما عن الآخر في بناء هذا النظم. وقد ألفينا عبد القاهر قد وظّف قواعد التركيب توظيفاً دلاليّاً لخدمة السياق التركيبي، ذاكرةً الفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر في إطار حديثه

عن المعاني التي تترتب في النفس، فإذا خرجت من النفس وظهرت على شكل ألفاظ منطوقة وضعت كل لفظة في موضعها المناسب الذي ترتبت فيه ذهنيًا.

ويرى كذلك أنه يمكن الربط بين التأويل النحوي ونظرية النظم بالاعتماد على العمليات الذهنية المتدرجة التي يمر بها المتكلم، والتي تُشكل انطلاقةً لغويًا مهمًا يتمثل في البنية العميقة التي تُجسد الأساس البنائي الذي يحدد المحتوى المعنوي للجملة، وهو موجود في الذهن؛ حيث ترسل الجملة أو تتلقى (الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ١٩٨، ١٩٩). ويرى عبد القاهر كذلك أنه إذا كان المبدع هو الذي ينجز النص وينظم تراكيبه؛ فإن المتلقي هو مَنْ يُوظف خبرته اللغوية وغير اللغوية، مستكشفًا العلاقات بين الدوال ومدلولاتها، ويتوصل إلى مقاصد الناظم، ويصير للفهم والتأويل شأنهما البالغ حينها، فإن العبارة هي نفسها موضع الفهم أو التأويل لدى المتلقي، فالمتكلم يقوم بعملية تشفير للمعنى الذي يقصده، والمتلقي يقوم بعملية فك هذا التشفير (ينظر جابر، ٢٠٠٤، ص. ٥٣؛ موان، ١٩٠٠، ص. ٢٠٢، ٢٠٣).

ولأجل هذا كان يشرك عبد القاهر (٢٠٠٢، ص. ١٤١) المتلقي في إكمال مفهوم النص، يقول: "فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه. فما كل أحد يفلح في شق الصدف ويكون في ذلك من أهل المعرفة".

إن فكرة النظم عند عبد القاهر هي عدم النظر للفظ إلا من خلال النظم، وأن الأوصاف التي تُنسب للفظ ليست إلا أوصافًا للمعنى، وأن خلف كل تركيب معنى ظاهرًا وباطنًا، فالمعنى الظاهر هو الدلالة الأولية (السطحية) للنص، والمعنى الباطن هو المعنى المستكن في أحضان النظم والتركيب، وهو ما يُسمى بـ (معنى المعنى) الذي لا يظهر إلا بتأمل.

من خلال كل هذا، يكشف لنا عبد القاهر الفرق بين (معنى المعنى) و(المعنى) الذي يرى في الأول أنه كل ما استخلصه الذهن من المعنى الأول للفظ الذي يصبح له مدلولًا عن معنى المعنى، أما الثاني فهو كل ما يتبادر للذهن من خلال القراءة الأولية للفظ الذي استخدمه فيما بعد في الدلالة على معنى المعنى، نحو: (بعيدة مهوى القرط)، فالقراءة الأولية توحى أن هناك كنايةً عن طول عنق المرأة، وهذا ما يُسمى بالمعنى، أما معنى المعنى فيتجسد من خلال اعتباره لتلك القراءة الأولية مدلولًا لمعنى ثانٍ الذي يتجسد في الجمال (إسماعيل، سبتمبر، ١٩٨٧، ص. ٤١).

لقد استخدم عبد القاهر الجرجاني النقد التحليلي التطبيقي المعتمد على تحليل النص، وفحوى الخطاب، والوقوف على مفهوم البنية العميقة والبنية الظاهرية للجملة، ولقد ابتدع عبد القاهر مصطلحات جديدة كالفرق في الخبر، وطور مصطلحات أخرى كالحذف، ونقل مصطلحات أخرى من ميدانها كالتقديم والتأخير الذي نقله من ميدان النحو إلى ميدان البلاغة (دهمان، ١٩٨٦، ص. ٢١٧).

ونود الإشارة إلى أن عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٢٠٢، ٢٠٣) لم يرد في نظرية النظم أن يؤسس لنحو جديد، ولا أن يدعو لطريقة جديدة فيه، ولو أراد ذلك وقصده لدعا إليه وصرّح به، ونبه على خطأ سابقه، واعتذر لمؤلفاته التي نحا بها منحاهم، ولكن عبد القاهر لم يؤلف كتابه الدلائل في النحو ولا قصد به نحوًا جديدًا، وإنما ألقه في البيان، وكان يُسمّي علم البلاغة علم البيان والفصاحة، وقد نصّ في مقدمته على هدفه من تأليفه، وهو الوصول إلى بيان نظم القرآن وإعجازه بإظهار دقائق وأسرار البيان فيه، وبين فضيلة هذا العلم وأن السبب في جهل الناس به هو إعراضهم عن تعلم الشعر وعلم الإعراب، وسوء اعتقادهم فيهما.

فعبد القاهر في دلالته أراد أن يبين وجوه معاني النحو من خلال التركيب بوصف ذلك علمًا مستقلًا له مساسٌ كبير ووشائجٌ قربى بعلم النحو والإعراب، أدركه بحسه المرهف وفطنته التامة.

٣. أسس نظرية النظم

تعتمد نظرية النظم عند عبد القاهر على عدة أسس هي: النظم، والترتيب، والموقع، والتعليق، والصياغة.

أما النظم: فهو تصور للعلاقات النحوية بين الأبواب؛ كتصور علاقة الإسناد بين المسند والمسند إليه، وتصور علاقة التعديّة بين الفعل والمفعول به، وهكذا. فهو نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم لا بناء الكلمات في صورة جملة.

وأما الترتيب: فهو تأليف الألفاظ على ضرب خاص، وترتيبها ترتيبًا معلومًا يقع حسب ترتيب معانيها في النفس على ما يقتضي العقل (ينظر: جمعة وشبيب، ٢٠٠٩، ص. ٣؛ كلاب، ٢٠١٣، ص. ١٨).

وأما الموقع: فهو ضرورة العلم بمواقع المعاني في النفس؛ لأن "العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق" (الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٤٤).

وأما التعليق: فهو إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يُسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية، ويحدد معاني الأبواب في السياق، ويُفسّر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعًا من التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية (ينظر عمر، ٢٠٠٦، ص. ١٨٨، ١٨٩؛ قلابية، نوفمبر ٢٠١٢، ص. ٥٦٤).

وأما الصياغة أو التصوير: فهما سبيل الكلام والمعنى الذي يقع فيه التصوير؛ كالفضة أو الذهب مادة الفن، والمزية في الكلام لا تكون في النظر إليه بمجرد معناه فقط، والصياغة عند الجرجاني دليل على جلاء الصورة الأدبية وبراعتها (ينظر: الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٥٩، ٦٠).

٤. أثر عبد القاهر في اللسانيات الحديثة

لقد شغل عبد القاهر الجرجاني بنظريته الرائدة (نظرية النظم) الدرس اللساني الحديث، فتحدث كثيرٌ من الباحثين عما ذهب إليه عبد القاهر، وعقدوا فصولاً ومباحث في تحليل نظريته هذه، وقاربوا بينها وبين مناهج لسانيات النص وتحليل الخطاب، فوجدوا أن نظريته هذه مُكَمَّلة للنظرية البنوية الوظيفية الحديثة؛ لأنه يعتمد فيها على مفهوم البنية العميقة، كما هي عند تشومسكي (ينظر: قلايلية، نوفمبر ٢٠١٢، ص. ٥٦١)، وقد سبق بثاقب فكره كثيرًا من النظريات اللسانية الحديثة، وشكّل النواة لها، وهو ما اعترف به كثير من المحدثين (ينظر: عبد القادر، سبتمبر ٢٠١٢، ص ٤٦).

يقول محمد مندور (٢٠١٧، ص. ٣٢٦): «الحق أن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية منقطعة النظير... هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا في أيامنا هذه».

ومن يستعرض آراء الجرجاني في كتابيه: الدلائل وأسرار البلاغة يلحظ ملامح الفكر اللساني عنده، كما سيدرك الأثر الواضح لعبد القاهر في الدرس اللساني الحديث، فالفصاحة عند عبد القاهر مرتبطة بالمتكلم الذي يستطيع بقدرته على الربط والتنظيم خلق انسجام النص، ويُمكن تشبيه ذلك بما يُعرف بالسياق في اللسانيات النصية الحديثة (حسان، ٢٠٠٦، ص. ١٨٨، ١٨٩). وهناك نقاط عديدة أثارها الجرجاني في مؤلفه دلائل الإعجاز، نجد فيها تقاطعًا في كثير من المفاهيم التي جاءت في لسانيات النص الحديث.

فلقد أورد عبد القاهر العديد من المصطلحات يجد من يدرسها ويحللها أنها تدخل في اللسانيات النصية الحديثة، مثل النظم، والتعليق، والفصاحة، ومعاني النحو، والوجوه، والفروق، والموضع، والفروق في الخبر، والفروق في وجوه الشرط والجزاء، والفروق في الحال، وآليات الربط والارتباط، فكل هذه المصطلحات تحمل مفاهيم أساسية في النظرية اللغوية العربية يمكن أن نجد لها نظيرًا في الدراسات النصية الغربية الحديثة (ينظر: حميدة، ١٩٩٧، ص ١١).

يقول عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٦٥) عن النظم: "وليس النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرًا للنسج والتأليف والصبغة والبناء والوشى والتحبير". فلقد ذكر عبد القاهر في نصه السابق عناصر أساسية لكي يكتمل النظم ويتماسك ويتناسق، وفي هذا يقترب كثيرًا من مفهوم الانسجام في اللسانيات النصية. ويقول عبد القاهر (١٩٩٢، ص. ٥٤) عن التعليق: "واعلم أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، ويُجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجمله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس".

ينص عبد القاهر في النص السابق على أن النظم هو تحصيل لترتيب الكلم وتعليق بعضه ببعض على أن يكون الترتيب مرحلة لاحقة للتعليق، والترتيب مقره في النفس، فيكون بذلك للنظم بعدان: بعد شكلي وبعد نفسي معنوي (حميدة، ١٩٩٧، ص. ١١)، والترتيب يكون في المعاني؛ لأنها مناط اهتمام المتكلم، فالتعليق فكرة أساسية في تشكيل النص وخلق الروابط بين أجزائه. ويذكر عبد القاهر أن التعليق يكون بين معاني الألفاظ مجردة من المعاني، وفي هذا إشارة إلى ما يُعرف الآن بالمعنى الوظيفي والمعنى المعجمي للألفاظ، وللمعنى المقامي الذي يكون معهما ما يعرف بالمعنى الدلالي (حميدة، ١٩٩٧، ص. ١١) ويقترب التعليق بهذه الصورة من مفهوم الاتساق عند اللسانيين.

ثم ذكر الجرجاني (١٩٩٢، ص. ٧٠) مصطلحي الفصاحة ومعاني النحو، والفصاحة عنده لا تكون في اللفظة المفردة، يقول: "إنهم قالوا: إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريق مخصوصة، فنراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا".

وفي هذا النص نجد الجرجاني يُفرق بين النحو وبين معاني النحو، ومن هنا تتشكل الفصاحة عنده من خلال اختيار اللفظ المناسب في المكان المناسب، مع مراعاة ما يليها وما يسبقها في ظل معاني النحو وأحكامه، وهذا ما يُعرف في الدرس اللساني الحديث بالوظائف والقرائن النحوية. يتضح من كل ما سبق سبقُ عبد القاهر لعصره بذكره لمصطلحات ومفاهيم تدخل فيما يُعرف الآن بلسانيات النص، وتشهد له بالعبقرية والريادة، التي بنى عليها الدرس اللساني الحديث كثيرًا من نظرياته.

وجعل منه ومن نظريته (النظم) مادة خصبة للبحث اللساني والتفكير اللغوي الحديث، فما ينبغي الإقرار به هو أن الأفكار التي كانت تراود عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: الدلائل وأسرار البلاغة تركت أثرًا بيّنًا في مناهج الدراسات الحديثة، سواءً عند العرب أو الغربيين (قلايلية، نوفمبر ٢٠١٢، ص. ٥٥٩).

من ذلك: ما يُعرف بالنظرية التوليدية التحويلية، ورائدها نعوم تشومسكي القائمة على تباين البنيتين السطحية والعميقة، فأساس هذه النظرية هو ما عبّر عنه عبد القاهر من أسبقية المعاني في ذهن المتكلم قبل النطق بها؛ لأن الألفاظ عنده خدم للمعاني (ينظر الجرجاني، ١٩٩٢، ص. ٥٣؛ حسانين، ٢٠١٨، ص. ٢٨٢٦ فما بعدها). مما يُوجي بتأثر تشومسكي بما سطره عبد القاهر الجرجاني تأثرًا مباشرًا وغير مباشر. كما أن ما سماه عبد القاهر بالعدول باللفظ عن المعنى الحقيقي أقرب لمصطلح الانزياح عند (جون كوهن) (ينظر بصل، ٢٠١٠، ص. ٢٣٦). وما قرّره عبد القاهر الجرجاني من التفريق بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي ترك أثره عند (رومان جاكسون) في حديثه عن الوظيفة الشعرية للنحو (ينظر: بصل، ٢٠١٠، ص. ٢٣٥). وإذا كان هذا أثر عبد القاهر في أقطاب

اللسانيين الغرب، فأثره في اللسانيين العرب أوضح وأجلى، وحسبك في هذا كثرة تردد اسم عبد القاهر الجرجاني ونظريته (النظم) في الدرس اللساني الحديث، وكثرة ما دار حولهما من أبحاثٍ ودراساتٍ.

خاتمة

لقد أظهرت الدراسة في مظاهر التجديد النحوي عند عبد القاهر أن التراث النحوي رغم قوته وأصالته وتماسك بنائه لم يكن بدعاً من العلوم الأخرى التي طالتها رياح التجديد والتغيير. ولم يكن جليلاً لا يتزعزع عن مكانه الذي وُضع فيه، ولا مقدساً لا يجوز المساس به بأي لون من ألوان النقد والتغيير، بل كان من المرونة ما ساعد على النهوض به وتجديد عرضه وأسلوبه. وإن تعرض لحملة شرسة وسهام جارحة من لدن طائفة من دعاة التجديد ورواده من السابقين واللاحقين؛ كابن مضاء ومن لفَّ لقه واتبع هداه من المعاصرين. إلا أننا نجد أنفسنا أمام محاولات تجديدية راشدة لإعادة ماء الحياة فيه، وبث روح الجدة والبهاء في وجهه، متمثلة في جهود عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم المستوحاة من معاني النحو المهتدية بأصوله وقواعده. ولقد أظهرت هذه الدراسة المقتضبة بعض النتائج التي من أبرزها ما يلي:

١. أصالة النحو العربي وقوة تماسكه أمام عواصف التغيير والتبديل الجائرة.
٢. مرونة النحو وحيويته، وقبوله لأي عملية إصلاحية جادة وغير متعسفة.
٣. أن موجة التجديد لم تكن على سنن واحدة، ولم تكن كلها نقية صافية.
٤. أن نظرية النظم عند عبد القاهر هي أبرز النظريات التجديدية، وأكثرها جدة، وأبلغها أثراً.
٥. أن عبد القاهر لم يُقِم نظريته هذه على أنقاض النحو، ولم يُرِدْها نحواً بديلاً، ولو أراد ذلك لصرَّح به.
٦. أن نظرية النظم عند عبد القاهر اتكأت بصورة واضحة على إبراز معاني النحو، واستحضار قواعده وأصوله.
٧. أن نظرية النظم فتحت آفاقاً واسعة أمام الدراسات اللسانية الحديثة، ما جعلها تحظى باهتمام واسع وتحليل كبير.
٨. فإن عبد القاهر في نظريته تلك قد سبق عصره، بل عصور من بعده إلى عصرنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع

الأبدي، أحمد بن محمد بن محمد، (٢٠٠١). الحدود في علم النحو. (نجاة حسن عبد الله نولي، تحقيق). الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. العدد ١١٢ - السنة ٣٣. عدد الأجزاء: ١.

إسماعيل، عز الدين، (سبتمبر، ١٩٨٧). قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر. مجلة الفصول. مصر. العددان ٣، ٤. المجلد: ٧.

الأنصاري، أحمد مكي، (١٩٧٣). الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين. دار المعارف. مصر. برانق، محمد، (د. ت) الاتجاهات الحديثة في النحو، مجموعة محاضرات في مؤتمر مفتشي اللغة العربية. دار المعارف، القاهرة، مصر.

بصل، محمد إسماعيل، (٢٠١٠). الملامح اللسانية في الفكر اللغوي العربي. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، مجلد (٣٢)، العدد (١).

تاكفراست، بشرى، (٢٠٠٥). الدراسات الحديثة ونظرية النظم عند عبد القاهر. مجلة ابن يوسف، مراكش. المغرب. العدد ٤.

جابر، يوسف حامد، (٢٠٠٤). البنيوية في النقد العربي المعاصر. كنوز اليمامة. الرياض. السعودية. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، (ت. ٤٧١، ١٩٩٢). دلائل الإعجاز في علم المعاني، (ط ٣) (محمود محمد شاكر، تحقيق). مطبعة المدني. مصر، دار المدني. السعودية.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، (٢٠٠٢). أسرار البلاغة (محمود محمد شاكر، تحقيق). مطبعة المدني. مصر، دار المدني. السعودية. عدد الأجزاء: ١.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، (١٩٧٢). الجمل. دار الحكمة. دمشق. سوريا.

الجرجاني، أبو بكر عبد القادر، (١٩٨٢). المقتصد في شرح الإيضاح. (كاظم المرجان، تحقيق). وزارة الثقافة والإعلام، العراق.

جمعة، بيان شاكر. شبيب، مهند (آذار، ٢٠٠٩). قراءة في نظرية النظم. مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العدد الأول.

حسان، تمام. (٢٠٠٦). مقالات في اللغة والأدب. (ط ١)، عالم الكتب. بيروت. لبنان.

حسانين، محمد أحمد، (٢٠١٨). بلاغة عبد القاهر الجرجاني في مرآة اللسانيات الحديثة. مجلة قطاع كليات اللغة العربية، العدد (١٢).

حسن، عباس، (د. ت). النحو الوافي. (ط ١٥). دار المعارف. عدد الأجزاء: ٤.

حميدة، عباس، (١٩٩٧). نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية. (ط ١). مكتبة لبنان. بيروت.

أبو حيان، محمد بن يوسف، (١٩٩٧). التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل. (ط ١) (حسن هنداي، تحقيق). دار القلم. دمشق، سوريا. عدد الأجزاء: ١٤.

خاطر، سليمان يوسف، (٢٠٠٩). التوجيه النحوي لوجوه القراءات القرآنية المشكلة في كتاب سيبويه ومواقف النحاة والمفسرين منه. مكتبة الرشد. الرياض. المملكة العربية السعودية.

الخثران، عبد الله بن حمد، (١٩٨٧). الاتجاهات التجديدية في الدرس النحوي عند عبد القاهر الجرجاني وابن خلدون. دار هجر.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، (٢٠٠٤). مقدمة ابن خلدون (ط ١)، (عبد الله محمد الدرويش، تحقيق). دار يعرب. سوريا. عدد الأجزاء: ٢.

خليفة، عبد الكريم، (١٩٨٦). تيسير العربية بين القديم والحديث. (ط ١) مجمع اللغة العربية الأردني، عمان. الأردن.

دهمان، أحمد علي، (١٩٨٦). الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجًا وتطبيقًا. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق. سوريا.

الزجاجي، إبراهيم بن محمد بن السري، (١٩٨٦). الإيضاح في علل النحو. (ط ٥) (مازن المبارك، تحقيق). دار النفائس، بيروت. لبنان.

السيوطي، جلال الدين، (١٩٩٢). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. (ط ١) (عبد السلام هارون، تحقيق). مؤسسة الرسالة، بيروت.

شاهين، يوسف محمود، (١٩٨٩). محاولات التجديد في النحو: اتجاهات وتفسيرًا ونتائج. رسالة ماجستير. جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

الشنطي، محمد وآخرون، (١٩٩٨). النحو العربي المشكلات والحلول. دار الأندلس للنشر والتوزيع. الرياض. حائل. السعودية.

ابن شهاب، عبد الله محمد زين. (٢٠١١). التأويل النحوي في ضوء نظرية النظم. مجلة كليات التربية. جامعة عدن. اليمن. العدد (١٢).

ضيف، شوقي، (١٩٩٣). تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده. (ط ٢). دار المعارف. مصر.

عباس، محمد، (١٩٩٣). الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني. دار الفكر المعاصر. دمشق. سوريا.

عبد القادر، أمجد كامل، (٣٠ سبتمبر، ٢٠١٢). الدلالة في الجملة الفعلية والاسمية بين الجرجاني وبعض الدارسين المحدثين. مجلة آداب البصرة. جامعة البصرة. العراق. العدد ٦٢.

العلوي، يحيى بن حمزة، (٢٠٠٢). الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. (ط ١). المكتبة العنصرية - بيروت. عدد الأجزاء: ٣.

عمر، تمام حسن، (٢٠٠٦). اللغة العربية معناها ومبناها. (ط ٥). عالم الكتب. الرياض. السعودية. عدد الأجزاء: ١.

عيساني، عبد المجيد، (٢٠٠٨). النحو العربي بين الأصالة والتجديد. دار ابن حزم. بيروت. لبنان.

- الفيصل، سمر روهي، (١ ديسمبر، ١٩٨٧). تيسير العربية بين القديم والحديث. مجمع اللغة العربية الأردني، رقم العدد: ٣٣.
- قلايلية، العربي. (نوفمبر ٢٠١٢). الفكر اللساني عند عبد القاهر الجرجاني وأثاره في اللسانيات الحديثة. مجلة الحضارة الإسلامية، الجزائر، العدد السابع عشر.
- كامل، حسين محمد، (ذو الحجة - فبراير، ١٩٧١). النحو المعقول. مجلة مجمع اللغة العربية. مصر.
- كلاب، أحمد عاطف، (٢٠١٣). منهج الإمام عبد القاهر في عرض المسائل النحوية، دراسة تحليلية. رسالة ماجستير. كلية الآداب. الجامعة الإسلامية. غزة.
- لاشين، عبد الفتاح، (د. ت). التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر. دار المريخ. الرياض. المملكة العربية السعودية.
- مخيمر، فؤاد علي، (١٩٨٣). فلسفة عبد القاهر الجرجاني النحوية في دلائل الإعجاز. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الأردن.
- مصطفى، إبراهيم، (١٩٩٢). إحياء النحو، (ط ٢). القاهرة. مصر.
- ابن مضاء، أحمد بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي، (١٩٤٧). الرد على النحاة. (ط ١) (شوقي ضيف، تحقيق). دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.
- مندور، محمد، (٢٠١٧). النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة. مؤسسة هنداوي. القاهرة، مصر.
- أبو موسى، محمد محمد، (٢٠١٠). مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني. (ط ٢). مكتبة وهبة. مصر. عدد الأجزاء: ١.
- مونان، جورج، (١٩٠٠). علم اللغة في القرن العشرين. وزارة التعليم العالي، دمشق، سوريا.
- الناصر، أحمد مطلوب أحمد، (١٩٨٠). أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة - المعاني. (ط ١). وكالة المطبوعات - الكويت.
- نايته، هند صالح. (١٩٨٧). مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته. رسالة ماجستير. كلية اللغة العربية. جامعة أم القرى. السعودية.
- أبو الهيجاء، ياسين. (٢٠٠٢). مظاهر التجديد النحوي لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة. رسالة دكتوراه. كلية الآداب. جامعة اليرموك. الأردن.

REFERENCES

- Al-Abadi, Ahmad bin Muhammad bin Muhammad. (2001). The Boundaries of Grammar (Najat Hassan Abdullah Nuli, ed.). Islamic University of Madinah. Issue 112 - Year 33. Number of parts: 1.

- Ismail, Izz al-Din. (September 1987). A Reading of the Meaning of Meaning in the Thought of Abd al-Qahir. *Al-Fusol Magazine*. Egypt. Issues 3, 4. Volume: 7.
- Al-Ansari, Ahmad Maki. (1973). *The Defense of the Quran Against Grammarians and Orientalists*. Dar al-Ma'arif. Egypt.
- Branq, Muhammad. (n.d.). *Modern Trends in Grammar, A Series of Lectures at the Conference of Arabic Language Inspectors*. Dar al-Ma'arif, Cairo, Egypt.
- Basal, Muhammad Ismail. (2010). Linguistic Features in Arabic Linguistic Thought. *Tishreen University Journal for Scientific Research and Studies*, Volume (32), Issue (1).
- Takfarast, Bushra. (2005). *Modern Studies and the Theory of Organization in the Thought of Abd al-Qahir*. Ibn Yusuf Magazine, Marrakech. Morocco. Issue 4.
- Jaber, Youssef Hamed. (2004). *Structuralism in Contemporary Arabic Criticism*. Kunuz al-Yamamah. Riyadh. Saudi Arabia.
- Al-Jurjani, Abu Bakr Abd al-Qahir. (d. 471, 1992). *Dala'il al-I'jaz fi 'Ilm al-Ma'ani* (3rd ed.) (Mahmoud Muhammad Shakir, ed.). Al-Madani Press. Egypt, Dar al-Madani. Saudi Arabia.
- Al-Jurjani, Abu Bakr Abd al-Qahir. (2002). *Asrar al-Balaghah* (Mahmoud Muhammad Shakir, ed.). Al-Madani Press. Egypt, Dar al-Madani. Saudi Arabia. Number of parts: 1.
- Al-Jurjani, Abu Bakr Abd al-Qahir. (1972). *Al-Jumal*. Dar al-Hikmah. Damascus. Syria.
- Al-Jurjani, Abu Bakr Abd al-Qadir. (1982). *Al-Muqtasad fi Sharh al-I'dhah*. (Kazim al-Marjan, ed.). Ministry of Culture and Information, Iraq.
- Juma'ah, Bayan Shaker. Shabib, Muhannad. (March 2009). A Reading in the Theory of Organization. *Journal of the University of Anbar for Islamic Sciences*, Issue No. 1.
- Hassan, Tamam. (2006). *Articles on Language and Literature*. (1st ed.), Alam al-Kutub. Beirut. Lebanon.
- Hassanein, Muhammad Ahmad. (2018). The Eloquence of Abd al-Qahir al-Jurjani in the Mirror of Modern Linguistics. *Journal of the Arabic Language Faculties Sector*, Issue No. (12).
- Hassan, Abbas. (n.d.). *Al-Nahw al-Wafi (The Comprehensive Grammar)*. (15th ed.). Dar al-Ma'arif. Number of parts: 4.
- Hamidah, Abbas. (1997). *The System of Association and Linking in the Structure of the Arabic Sentence*. (1st ed.). Maktabat Lubnan. Beirut.
- Abu Hayyan, Muhammad bin Yusuf. (1997). *Al-Tadheel wa-al-Takmeel fi Sharh Kitab al-Tahseel*. (1st ed.) (Hasan Hindawi, ed.). Dar al-Qalam. Damascus, Syria. Number of parts: 14.
- Khater, Sulayman Yusuf. (2009). *The Grammatical Guidance of the Problematic Quranic Readings in the Book of Sibawayh and the Positions of Grammarians and Interpreters on It*. Maktabat al-Rashd. Riyadh. Saudi Arabia.
- Al-Khathran, Abdullah bin Hamad. (1987). *The Renewal Trends in the Grammatical Studies of Abd al-Qahir al-Jurjani and Ibn Khaldun*. Dar Hijr.
- Ibn Khaldun, Abd al-Rahman bin Muhammad bin Muhammad. (2004). *The Muqaddimah* (1st ed.), (Abdullah Muhammad al-Darwish, ed.). Dar Ya'rub. Syria. Number of parts: 2.
- Khalifa, Abd al-Karim. (1986). *Facilitating Arabic Between the Old and the New* (1st ed.). Jordanian Academy of Arabic Language, Amman. Jordan.

- Dahman, Ahmad Ali. (1986). *The Rhetorical Image in the Thought of Abd al-Qahir al-Jurjani: Methodology and Application*. Dar Tlass for Studies, Translation and Publishing. Damascus. Syria.
- Al-Zujaji, Ibrahim bin Muhammad bin al-Sarri. (1986). *Al-Idah fi Ilal al-Nahw* (5th ed.) (Mazen al-Mubarak, ed.). Dar al-Nafayes, Beirut. Lebanon.
- Al-Suyuti, Jalal al-Din. (1992). *Huma al-Hawami fi Sharh Jam' al-Jawami* (1st ed.) (Abd al-Salam Harun, ed.). Dar al-Risalah, Beirut.
- Shahin, Yousef Mahmoud. (1989). *Attempts at Renewal in Grammar: Trends, Interpretation and Results*. Master's Thesis. Yarmouk University, Irbid, Jordan.
- Al-Shantawi, Muhammad et al. (1998). *Arabic Grammar: Problems and Solutions*. Dar al-Andalus for Publishing and Distribution. Riyadh. Hail. Saudi Arabia.
- Ibn Shahab, Abdullah Muhammad Zain. (2011). *Grammatical Interpretation in the Light of the Theory of Organization*. Journal of Faculties of Education. University of Aden. Yemen. Issue No. (12).
- Daif 'Shawqi. (1993). *Facilitating Educational Grammar: Past and Present, with an Approach to Renewing It*. (2nd ed.). Dar al-Ma'arif. Egypt.
- Abbas, Muhammad. (1993). *The Creative Dimensions in the Methodology of Abd al-Qahir al-Jurjani*. Dar al-Fikr al-Mu'asir. Damascus. Syria.
- Abd al-Qadir, Amjad Kamil. (September 30, 2012). *The Signification in the Verbal and Nominal Sentence between al-Jurjani and Some Modern Scholars*. Journal of Basra Arts. University of Basra. Iraq. Issue No. 62.
- Al-Alawi, Yahya bin Hamza. (2002). *Al-Taraf fi Asrar al-Balaghah wa Ulum Haqaiq al-I'jaz*. (1st ed.). Al-Maktaba al-Ansariyya - Beirut. Number of parts: 3.
- Omar, Tamam Hassan. (2006). *The Arabic Language: Its Meaning and Structure*. (5th ed.). Alam al-Kutub. Riyadh. Saudi Arabia. Number of parts: 1.
- Issani, Abdul Majid. (2008). *Arabic Grammar Between Authenticity and Renewal*. Dar Ibn Hazm. Beirut. Lebanon.
- Al-Faisal, Samar Ruhi. (December 1, 1987). *Facilitating Arabic Between the Old and the New*. Jordanian Academy of Arabic Language, Issue No. 33.
- Qalayliyyah, Al-Arabi. (November 2012). *The Linguistic Thought of Abd al-Qahir al-Jurjani and Its Impact on Modern Linguistics*. Journal of Islamic Civilization, Algeria, Issue No. 17.
- Kamel, Hussein Muhammad. (Dhu al-Hijjah - February, 1971). *Rational Grammar*. Journal of the Academy of Arabic Language. Egypt.
- Kelab, Ahmed Atef. (2013). *The Method of Imam Abd al-Qahir in Presenting Grammatical Issues, An Analytical Study*. Master's Thesis. Faculty of Arts. Islamic University. Gaza.
- Lashin, Abdul Fattah. (n.d.). *Grammatical Structures from a Rhetorical Perspective in the Thought of Abd al-Qahir*. Dar al-Marikh. Riyadh. Saudi Arabia.
- Mukhaimer, Fouad Ali. (1983). *The Grammatical Philosophy of Abd al-Qahir al-Jurjani in Dala'il al-I'jaz*. Dar al-Thaqafah for Publishing and Distribution. Jordan.
- Mustafa, Ibrahim. (1992). *Reviving Grammar*, (2nd ed.). Cairo. Egypt.
- Ibn Mada'a, Ahmad bin Abd al-Rahman bin Muhammad al-Lakhmi. (1947). *The Response to Grammarians*. (1st ed.) (Shawqi Daif, ed.). Dar al-Fikr al-Arabi. Cairo. Egypt.

- Mandour, Muhammad. (2017). *Methodological Criticism in the Arab World and the Research Methodology in Literature and Language*. Hindawi Foundation. Cairo, Egypt.
- Abu Musa, Muhammad Muhammad. (2010). *An Introduction to the Two Books of Abd al-Qahir al-Jurjani*. (2nd ed.). Maktabat Wahbah. Egypt. Number of parts: 1.
- Monan, Georges. (1900). *Linguistics in the Twentieth Century*. Ministry of Higher Education, Damascus, Syria.
- Al-Nasri, Ahmed Matloub Ahmed. (1980). *Rhetorical Styles: Eloquence - Rhetoric - Meanings*. (1st ed.). Kuwait News Agency - Kuwait.
- Naytah, Hind Saleh. (1987). *The Sources of Imam Abd al-Qahir in His Rhetoric*. Master's Thesis. Faculty of Arabic Language. Umm al-Qura University. Saudi Arabia.
- Abu al-Hajaj, Yassin. (2002). *Aspects of Grammatical Renewal at the Academy of Arabic Language in Cairo*. Ph.D. Dissertation. Faculty of Arts. Yarmouk University. Jordan.